الاستلزام الحواري المعمّم

(Generalized conversational implicatures)

في القرآن الكريم

(دراسة تداولية في المنظور الغرايسي)

م.م. جنان سالم محمد البلداوي

كلية التربية للبنات – جامعة بغداد

أ.د. زينب عبد الحسين الملا السلطاني

كلية التربية للبنات – جامعة بغداد

الملخص:

اعتنى البحث بدراسة الاستلزام الحواريّ المعمّم عند غرايس في مقاله (المنطق والمحادثة) دراسة تطبيقية في القرآن الكريم؛ وذلك لبيان الأغراض النفعية التداولية التي عبّر عنها المتكلم في الحوار القرآني بوساطة دلالات التنكير الثلاثة التي نصّ عليها غرايس في نظريته في هذا الاستلزام.

وتوصل البحث إلى أنّ كلّ تلك الدلالات أو الوجوه تنطوي على نوايا مضمرة للمتكلم، وما وجدناه في الحوار القرآني من تلك النوايا؛ في الوجه الأول: إمّا تعجب أو استعطاف أو مساعدة أو إعلام، وفي الثاني: إمّا إيهام أو إقناع.. وفي الثالث: إمّا الإساءة أو التشكيك أو التعظيم.. وإنّ هذا الغرض النفعي يتعين بحسب الاستراتيجية التي جاء عليها النص الحواري على وفق مطابقته للمعاني الثلاثة التي نصّها غرايس لـ (س) في نظريته، وتوصلنا أيضًا إلى أنّ وجه الاختلاف بين الدراسة اللغوية واللسانية والدراسة التداولية في دلالة التنكير أنّ الأولى تُعنى ببيان أنّ (س) نكرة وغير معروف بالنسبة للمتكلم، والثانية تعتمد في تفسيرها لتلك النكرة على وفق ما يحدده المخاطب في تفسير (س).

Abstract:

This research is concerned with the study of generalized conversational implicature in Grice in his article (Logic and Conversation) as an applied study in the Holy Qur'anic to show the pragmatic beneficial purposes expressed by the speaker in the Quran conversation indirectly by the three indefinite indications which are written by Grice in his theory in this implicature.

The research finds that all these aspects have intended implied intentions for the speaker; what we found in this qur'anic conversation of these intentions in the first: either exclamation, metaphor, assistance or informing. In the second, inspiration or persuasion. In the third, either the offense or the doubt and glorification. This beneficial purpose is selected according to the strategy of the conversational text that match the three meanings which were written by Grice for (x) in his theory. The research also finds that the difference between the linguistic study and pragmatic study in the indefinite is that the first shows (X) as indefinite and unidentified to the speaker, whereas the latter depends, in its explanation for the indefinite, according to what the addressee determines in the explanation of (X).

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا منتهى لحمده... والصلاة والسلام على حبيب إله العالمين محمد، وعلى آله وصحبه المنتجبين.

أمَّا بعد...

فلمَّا وجدنا افتقار الساحة التداولية إلى دراسة الاستلزام الحواري المعمّم عند غرايس دراسة موضوعية في استراتيجيات الحوار عمومًا والقرآن الكريم خصوصًا رأينا أن نعمد إلى تحليل دينامية التفاعل التواصلي في الحوار القرآني في منظور علم التداوليات بابستمولوجية غرايس التي وضعها في هذا النوع من الاستلزام، وكانت هذه الدراسة قائمة على المنهج الآتي:

١. استقراء نصوص الحوار القرآني التي يمكن انطباقها على ما نصّ عليه غرايس في ثلاثية المعنى التي قدّمها في نظريته في الاستلزام الحواريّ المعمّم.
٢. اعتماد الباحثة منهج التحليل بتحديد المرسَل المعبّر عنه بـ (أ)، والمرسل إليه(ب) في بداية كلّ نصٍ حواري.
٣. تحليل استراتيجية الحوار المدروس وذلك بتحديد نوعها من تلك الثلاثية.
٤. استخرجت الباحثة الغرض النفعي البراغماتي الذي من أجله أضمر المعنى المباشر في نهاية كلّ نصٍ مدروس.
٥. توثيق ما تّم استنتاجه من تلك الأغراض بما ذهب إليه علماء التداوليات ولاسيّما الإدراكية منها، وبما جاء في تراثنا من التفاسير القرآنية.

عندما عمد هاربت بول غرايس (Herbert paul Grise)* إلى دراسة فلسفة الحوار بين المتحاورين في المنظور التداولي وضع نظريته في (الاستلزام)

((implicatures في مقاله المشهور (المنطق والمحادثة) (Logic and conversation)، مقسِّمًا إيّاه على قسمين؛ أولهما: الوضعي، والآخر غير الوضعي، وقسّم الأخير أيضًا على قسمين، هما: الاستلزام الحواريّ المعمّم (Implicatures Generalized Conversaional)، والاستلزام الحواريّ المخصّص (Particularized conversational implicatures)[١]، والأول منهما هو محل عناية البحث.

عرّفه التداوليون بأنّه: ما لا يحتاج عند حدوثه إلى معرفة مسبقة خاصة بسياق اللفظ لتكوين الاستدلالات الضرورية بل يولّده الشكل اللغوي، بخلاف الثاني[٢]، وقيل: هو استلزام الاسم النكرة الذي لا يمتُّ مسمّاه بصلة قريبة إلى المتكلم[٣]، أمّا غرايس فعرّفه بالمثال قائلًا: ((واقترح مثالًا أرجو ألّا يكون البتة مثيرًا للخلاف. إنّ أيّ شخص يستعمل جملة من قبيل(يلتقي (س) امرأة هذا المساء)، يستلزم مبدئيًا أنّ الشخص الذي سيكون في الموعد ليس زوجة (س)، أو أمّه أو أخته أو...))[٤].

فتمثيل غرايس فيما تقدّم للمركّب الإسمي بـ (س) يستلزم محادثيًا أنَّ (س) ليس له علاقة قرابة بشخص محدد (المتكلم) وغيره[٥]. وهذا في الواقع ينطبق في العربية على (الاسم النكرة) نحو: (كنت جالسًا في حديقة ذات يوم) - (نظر طفل من فوق السياج). فاستلزم قوله هذا أنّ الحديقة والطفل ليست عائدة إلى المتكلم وغير معلومة لديه.

حاول غرايس في هذا النوع من الاستلزم أن يضع ثلاثة معانٍ، قال: ((إنّي أميل إلى اعتبار أنّ لا أحد سيصغي بانتباه إلى فيلسوف ما يُشير إلى وجود ثلاثة معانٍ لصيغ ترد فيها عبارة (س). أمّا المعنى الأول فتدلّ فيه تقريبًا على شيء ما يستوفي شروط تحديد العبارة(س). أمّا المعنى الثاني فتدلّ فيه على وجه التقريب أنّ (س) (بالمعنى الأول) لا تربطه إلا علاقة غير وثيقة نوعًا ما بشخص يحدده السياق، ويوجد مع ذلك معنى ثالث مفاده أنّ شخصًا ما (س) بالمعنى الأول تربطه علاقة وثيقة بشخص يحدده السياق))[٦].

وسنحاول إن شاء الله تعالى في هذه النماذج الحوارية في القرآن الكريم تطبيق تلك المعاني:

الوحدة الحوارية الأولى:

(ا) قال تعالى على لسان نبي الله سليمان (عليه السلام)[٧]: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾[٨].

(ب) قال تعالى على لسان الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾[٩].

إنّ نقل خبر سبأ وملكتها بلقيس عن طريق الهدهد وسيلة التمس بها الهدهد عذرًا لغيابه عن سليمان (عليه السلام) بعد أن توعده (عليه السلام) بالقتل أو العذاب إلا إذا أتاه بحجة قوية تبرر غيابه.

وقد انطوى هذا الخبر على استعمال الرمز البراغماتي ﴿**ٱمۡرَأَةٗ**﴾ نكرة، وهذا يستلزم في دائرة الحوار عند غرايس أنّ الهدهد لا يعرف تلك المرأة عمومًا من قبل؛ إذ إنّها ليست من الأقوام التي يحكمها سليمان (عليه السلام) آنذاك، كانت وقومها يعبدون الشمس، وهذا موافق في الواقع للمعنى الأول الذي حاول غرايس أن يضعه في تقسيمه الثلاثي للصيغ التي ترد فيها عبارة (س) قائلًا: ((أمّا المعنى الأول فتدلّ فيه تقريبًا على شيء ما يستوفي شروط تحديد العبارة(س))[١٠]، فمع أنّ الهدهد حاول أن يستوفي في قوله شروط تحديد شخصية تلك المرأة تقريبًا بوساطة قرينة المُلك بالمستويين اللساني والخارج لساني ـ أمّا المستوى اللساني فيتمثل في كون تلك المرأة من ناحية الوظيفية التداولية التي تؤديها في هذا الحوار كانت (المحور) فيه كما يطلق

عليه أحمد المتوكل(١١)، أي: ((الذات التي تشكل موضوع حمولة المعلومات الواردة))(١٢) في الخطاب، وأمّا المستوى الخارج لساني أي النفسي أو الاجتماعي.. فمصوغ هنا بصيغة التنكير متلبسًا بالتعجب؛ إذ لم يكن معهودًا آنذاك أن تكون المرأة مَلِكًا في قومها، يؤيده تقديم المفعول به الأول الذي أخذ حكم المبتدأ في جواز مجيئه نكرة إذا أريد به التعجب، فضلًا عن أنّ تصدّر الجملة بـ (إنّ) إشارة إلى أهمية الخبر وتأكيده متلبسًا بذلك التعجب(١٣) . إلّا أنّ ذلك لا ينفي استلزام كون تلك المرأة لا تربطها أيّة علاقة بالهدهد؛ لذا عبّر عنها بالنكرة، ومنه يُعلم أنّ الغرض النفعي من مجيء النكرة هنا هو التعجب.

الوحدة الحوارية الثانية:

(أ) قال الله تعالى مخاطبًا النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴾(١٤).

(ب) النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

لو تأملنا في الاستراتيجية التلميحية التي استعملها الله تعالى في هذا الحوار بوساطة مجيء لفظة ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾ نكرة ساردًا لنبيه الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قصة موسى (عليه السلام) مع ابنتي شعيب (عليه السلام) لنجد أنّه استلزم منه أن يُفهم أنّ موسى(عليه السلام) لم يعرف هاتين المرأتين، وأنّهما كانتا مجهولتين كليًا بالنسبة له، يؤيدهُ قوله (عليه السلام): ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾؟، ((وهو سؤال عن قصتهما وشأنهما إذ حضرا الماء ولم يقتحما عليه لسقي غنمهما))(١٥)، وهذا موافق للمعنى الأول أيضًا الذي حاول غرايس أن يضعه في تقسيمه الثلاثي، وقد أشرنا إليه(١٦)، هذا ((ويجب أن نَرُدَّ مركب الخصائص التي تقترن بالشخصيات (أقصد ما يسميه بارت الشفرة الإيحائية) إلى بعض

السمات المجملة التي تنشّطُها القصة نفسها))[١٧]، فالشفرة الإيحائية المهيمنة أو شفرة الأفعال كما يُطلق عليها في السرد القصصي هنا هي (شفرة المساعدة)، والخصائص المركّبة المقترنة بالشخصيات التي تنشطها هذه القصة تتمثل في (وجود ابنتين) متسمتين بالحياء لا تقتربا من مورد الروي إلا بعد أن يفرغ القوم ((وهذا الاجمال أو الاختصار الدلالي هو الجانب الحاسم جدًا في العملية التأويلية على هذا المستوى من التحليل))[١٨].. بمعنى: إنّ(س) غير معروف لدى موسى (عليه السلام)، إلا أنّه أراد بسؤاله مساعدتهما؛ لذا يُعد تحليل غرايس ـ في نظر دافيس ـ واعدًا بالنسبة للتواصل أكثر منه بالنسبة لمدلول المتكلم... بمعنى: إنّه يرى من الأهمية التأكيد على أنّ المستمع يستعمل نوايا المتكلم لفهم القول أكثر منه لفهم مدلول المتكلم، فيُعدّ التعرف على قصد المتكلم بحسب دافيس شرطًا لفهم القول أكثر منه وسيلة لفهم المتكلم [١٩]، وكأنّه تعالى عندما عمد إلى استعمال النكرة هنا بدلًا من التعريف أراد أنّ قصد موسى (عليه السلام) ونيته هو تقديم المساعدة عمومًا دون تشخيص فرد بعينه، بخلاف ما هو متعارف في البشر؛ إذ إنّ المساعدة عندهم ربما قد تنحصر بما له علاقة شخصية بالمخاطب أو لأجل تحقق مصالح دنوية. وفيه إشارة إلى سمو خلق الأنبياء (عليهم السلام) والاقتداء بهم؛ إذ لو عرّف القرآن الكريم هاتين المرأتين وبيّن أنّهما ابنتا شعيب (عليه السلام) لفهم السامع غير ذلك.

الوحدة الحوارية الثالثة:

(أ) قال تعالى على لسان رجل مؤمن من آل فرعون مخاطبًا بني إسرائيل [٢٠]:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[٢١].

(ب) بنو إسرائيل.

يولّد تنكير الاسم ﴿ رَجُلًا ﴾ تلميحًا مفادهُ أنّ مؤمن آل فرعون ليس قريب الصلة بموسى (عليه السلام)، إلا إنّنا لو تأملنا في السياق لنجد أنّه ألمح إلى شخصه

(عليه السلام) بوساطة جهره بتوحيد الله تعالى؛ إذ إنّ اعتناق الايمان بالله لم يكن شائعًا ومطّردًا آنذاك، فمن يسلك هذا الطريق لا يُعرف إلا من قِبل من اعتنقه وإن كان من غير المقربين لديه، ومنه يُعلم أنّه كان على معرفة به (عليه السلام)، إلا أنّ تلك العلاقة لم تكن علاقة وطيدة وهذا موافق للمعنى الثاني الذي وضعه غرايس في تقسيمه لهذا الاستلزام قائلًا: ((أمّا المعنى الثاني فتدلّ فيه على وجه التقريب أنّ (س) (بالمعنى الأول) لا تربطه إلا علاقة غير وثيقة نوعًا ما بشخص يحدده السياق))[٢٢]؛ وما قال هذا مؤمن آل فرعون إلا خوفًا على نفسه من القتل، فعدل بذلك من المعرفة لى النكرة حتى يوهمهم أنّه لا يعرفه شخصيًا وأنه ليس من أتباعه أمامهم، ويُطلق على هذه الشفرة عند بارت (شفرة التأويل أو الألغاز) التي تمثل عنصر بناء أساسي للسرد القصصي.... [٢٣]، والظاهر أنّ هذه الطريقة تجعل القارئ يحاول أن يجيب عن الاسئلة التي يثيرها هذا النص، والتي منها ما مدى قرابة ذلك الرجل للمتكلم؟ وهو ما ابتغاه مؤمن آل فرعون كما بينا.

الوحدة الحوارية الرابعة:

(أ) **قال تعالى على لسان بعض أخوة يوسف مخاطبين الباقين**[٢٤]: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾[٢٥].

(ب) **بعضهم الآخر.**

نلحظ هنا أنّ اختيار أخوة يوسف الدينامية الحوارية باستعمال العلامة البراغماتية ﴿أَرْضًا﴾ نكرة يستلزم أن تكون هذه الأرض ليست بأرضهم عمومًا، بل في منفى بعيدة نائية مقطوعة[٢٦]، لا تمت بصلة لهم ولا بمكان موطنهم، وهذا موافق للمعنى الأول لغرايس في هذا الاستلزام[٢٧]، فمع استيفاء المعنى لتحديد الأرض وهي

كونها نائية، بقيت تلك الأرض مجهولة نكرة، وما اختاروا هذه الاستراتيجية إلا للتأثير في نفوس بعضهم بعضًا من باب التأكيد على نجاح مخططهم؛ إذ إنّهم لو طرحوه في أرضٍ نائية لا يطّلع على فعلهم أهلهم أو المحيطون بهم، ومنهُ عُلم أنّ اللغة نمط من الفعل والتفاعل، وأنّ العلامات لا تملك وظيفة فكرية فحسب بل تأثيرية أيضًا(٢٨)، وعليه فالتداولية تدرس اللغة من وجهة نظر وظيفية، فتُفسّر أوجه التراكيب اللغوية بالإشارة إلى عوامل غير لغوية(٢٩)، وبالتالي تمكننا من تبليغ المعاني أكثر مما تدّل بقول من الأقوال(٣٠)، فضلًا عمّا سبق فأنّ للوضعية الملموسة في السياق بوساطة مقاصد تخص المكان والزمان وشخصية المتحاورين وكل ما نحتاج إليه من أدوات تحليلية أثرًا في تقويم ما يُقال(٣١)، وكذلك تجلي المعنى والوقوف على قصدية المتحاورين في الاستعمال؛ وبناءً عليه عُلم أنّ القصدية أو الغرض النفعي البراجماتي هو التأثير أو الإقناع.

الوحدة الحوارية الخامسة:

(أ) قال تعالى على لسان يوسف (عليه السلام) مخاطبًا أخوته: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾(٣٢).

(ب) أخوة يوسف.

لو تأملنا قليلًا في هذه الوحدة الحوارية بين الإخوة نلحظ أنّ استعمال يوسف (عليه السلام) أسلوب التنكير بقوله: ﴿بِأَخٖ لَّكُم﴾ استلزم منه أنّه لا يعرف أخاه (بنيامين)، وأنّه ليس بينهم صلة قربى، والحق أنّه على معرفة تامة به، ولكنّه حاول أن يتمكن من إخفاء البعد القصدي لديه بالطريقة التي لا تترك للمخاطب (ب) فرصة اكتشافه والتعرف عليه، وهذا يتوافق مع المعنى الثالث الذي وضعه غرايس في هذا الاستلزام قائلًا: ((ويوجد مع ذلك معنى ثالث مفاده أنّ شخصًا ما (س) (بالمعنى

الأول) تربطه علاقة وثيقة بشخص يحدده السياق))[٣٣]، يؤيده أنّه ابتعد حتى عن قول: (بأخيكم)؛ وذلك لـ((مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم كأنّه لا يدري من هو ولو أضافه اقتضى معرفته لإشعار الاضافة به ومن هنا قالوا في: أرسِلْ غلامًا لك الغلام غير معروف، وفي أرسل غلامك معروف بينك وبين مخاطبك عهد فيه))[٣٤]، وعليه يمكن القول إنّ تأويل الملفوظات على وفق غرايس ((يتوقف على عاملين اثنين: معنى الملفوظ والسياق المقامي لإنتاجه))[٣٥]، ومنهُ يُعلم أنّ المعنى المضمر الذي أراده يوسف (عليه السلام) هو الإيهام.

الوحدة الحوارية السادسة:

(أ) قال الباري تعالى مخاطبًا الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم):

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾[٣٦].

(ب) الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

لو عمدنا إلى فك شفرات هذا النص الميتاحواري سنجد أنّ استعمال آلية التنكير في لفظة ﴿رُسُلٌ﴾ يستلزم ويؤول إلى أنّه لا يوجد صلة بين الله ورسله الذين بعثهم من قبل أو بتعبير آخر أنّهم غير معروفين لديه (تعالى عن ذلك)، والواقع خلاف ذلك؛ إذ إنّ الله تعالى أعلم بمن أرسل قبل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أيضًا يعلم بهذا، وهذا موافق للمعنى الثالث الذي ذهب إليه غرايس في هذا الاستلزام الحواري المعمّم[٣٧]، وإنّما جاء تعالى بـ ﴿**رُسُلٌ**﴾ منكّرًا ((لما في التّنكير من الدلالة على تعظيم أولئك الرسل زيادة على جانب صفة الرسالة من جانب كثرتهم وتنوع آيات صدقِهم ومع ذلك كذبّهم أقوامهم))[٣٨]، وهذا ما يعزّز همة النبي الأعظم في أداء رسالته ويخفف عنه آلامه؛ بسبب ما لاقاه من معاداة قريش، وبالتالي تعظيم منزلته ومهمته في الرسالة(صلى الله عليه وآله وسلم)،

منه يُعلم أنّ الحوار يتضمن من الناحية العلمية تفاعلًا تواصليًا يحتضن خصائص تواصلية وخصائص تداولية، أمّا الأولى منهما فمبنية في الأساس على مقتضيات التواصل الاستدلالي الذي بدوره يمكِّننا من إفراز خصائص تفاعلية تحتضنها الخطاطات الميتاحوارية الدقيقة، وأمّا الثانية فمبنيّة على التعدد السياقي الذي يجعل القائلين لا يقفون عند القصد الإخباري للأقوال بل يتعدون ذلك إلى معانٍ سياقية تداولية تحكم العلاقة بين أطراف الخطاب(٣٩)، فلولا الخصائص التواصلية بين الله تعالى ورسوله المقتضية التفاعل التواصلي الاستدلالي لمّا تمكّن (صلى الله عليه وآله وسلم) من الوصول إلى المعنى السياقي التداولي ـ وهو تعظيم منزلته ـ الذي أُحكِم بوساطة العلاقة بين الله تعالى ورسوله.

(الوحدة الحوارية السابعة):

(أ) قال تعالى على لسان بعض كبار قريش مخاطبين بعضهم الآخر: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾(٤٠).

(ب) بعضهم الآخر.

هذا الحوار ضرب من الحوارات المكية التي واجهها النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مع مشركي قريش، وهم في تعنتهم ورفضهم لرسالته وجدالهم بالباطل وتطاولهم عليه، فكانت من تلك المطاولات أنّهم اتهموه بالرجل المسحور عقله، بمعنى: يقول كلامًا غريبًا لا يقوله الطبيعيون من الناس!، وفي الواقع أنّ استعمالهم للفظ ﴿رَجُلًا﴾ نكرة يستلزم أنّه رجل غير معروف لديهم، والحق إنّهم يعرفون شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جيدًا، ويعرفون منزلته وإن لم تكن لهم صلة وثيقة به، وما استراتيجيتهم هذه في التداولية إلا إساءة لشخصه الشريف، فضلًا عن أنّهم لم يدركوا أنّ مقولتهم هذه ((في الوقت ذاته تشي بشعورهم الداخلي بأن ما يقوله غير

طبيعي، ولا مألوف، ولا هو من عادة البشر ولا هو من مستوى البشر...))[٤١]، بمعنى: نستطيع القول إنّهم ادعوا أنّهم لا يعرفونه ولكن في الوقت نفسه لا يدركون أنَّ كلامهم هنا يشير إلى اعتراف داخلهم بمنزلته ومنزلة رسالته، ومنهُ عُلم أنّ التداولية الحوارية تُعنى بـ((العملية التواصلية في كلِّ ابعادها النفسية والاجتماعية والإيديولوجية، وبدراسة العلاقة بين اللغة والسياق))[٤٢] وهذا الحوار مطابق للمعنى الثالث الذي قدمه غرايس في هذا الاستلزام[٤٣]، فعلى الرغم من تحديد السياق لشخص الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بما تعجبوا به من صفاته بطريقة غير مباشرة فإنّهم تجاهلوه قاصدين الإساءة كما نوهنا.

(الوحدة الحوارية الثامنة):

(أ) قال تعالى على لسان وارد الماء الذي أرسلته القافلة: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٤٤].

(ب) أفراد القافلة (السّيارة).

إنّ التفاعل التواصلي الملحوظ في إبستمولوجية هذا الحوار يرمز إلى أنّ استعمال العلامة اللغوية ﴿غُلَـٰمٌ﴾ نكرة من بعض السَّيارة ـ (القافلة) التي وجدت يوسف(عليه السلام) في الجب ـ إذ إنّ ذلك الغلام لا يقرب لهم بصلة ولا يعرفونه عمومًا، والحق هو كذلك، وهذا مصداق آخر من مصاديق المعنى الأول عند غرايس[٤٥]؛ لأنّهم لو كانوا يعرفونه تقريبًا على ما أشار إليه غرايس في المعنى الثاني، أو حقيقة كما في المعنى الثالث ما اكتفوا بذلك في قولهم، هذا على الرغم من توفر شروط تحديد ملامح (س) حسب غرايس هنا وهو المائز العمري، بمعنى: كونه غلامًا، إلّا أنّه بعيد كل البعد عن المتكلم، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾(٤٦)، إذ يُستدل منه أنّهم جاهلون بحقيقة أمره، وجاهلون بما أودع فيه من خزائن الغيب؛ إذ لو كانوا يعرفون ذلك ما باعوه بثمن بخس؛ ولذا لمّا كشف للنسوة بعض الأمر قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(٤٧)...(٤٨)، ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ استعمال (هذا) المفيدة للتعريف هنا ((لا يقصد به الدلالة على ذات معيّنة مرئية بل يقصد به إشعار السامع بأنه قد حصَل شيءٌ فرح به غير مترقب، كما يقول الصائد لرفاقه: هذا غزال وكما يقول الغائص: هذه صدفة أو لؤلؤة ويقول الحافر للبئر: هذا الماء))(٤٩)، وإلا لو رأوه بذاته ما احتاج ذلك إلى التعريف بأنّه غلام، والظاهر أنّهم رأوا شبح يوسف قبل أن يصعده الوارد من الجب، وذلك تنكير فوق تنكير، ومنه يُعلم أنّ المعنى في تداولية الاستلزام الحواري المعمّم لا تحدده قواعد لغوية بل تحدده طريقة إنجاز الملفوظ في المقام، وأنّ الغاية الخطابية التداولية المستعملة في لغة هذا الحوار القرآني هي غاية إعلامية فقط، يؤيد ذلك ذهاب التداوليين إلى أنّ الغايات الكلية للتخاطب في الطبيعة الاجتماعية لا تكاد تخلو من سمة اجتماعية بأنها نفسية أو إعلامية، أو دينية، أو أيديولوجية، أو أخلاقية أو فنية (٥٠)، وبناءً على ما تقدّم، فإنّ المعنى المتضمن في الاستلزام هو الاستعطاف وإمالة قلب فرعون وعطفه على زوجه.

(الوحدة الحوارية التاسعة):

(أ) قال تعالى على لسان امرأة فرعون مخاطبًا فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٥١).

(ب) فرعون.

إنّ المميز الأساسي بين لغة الانسان وغيره هي (المقصدية)؛ إذ إنّ الكلام لا يخلو منها؛ لأنّها تكسبه دينامية وحركة، بل هي منطلق الدينامية(٥٢)، ومن

الباحثين((من قصرها على ما ورد فيه جذرها صراحةً أو ضمنًا (بارت Parret)، ومنهم من جعلها مسبقة (كريماص Greimas)، ومنهم من جعلها ميكانيكية موجهة (أوستن Austin، وغرايس Grice، وسورل searle) بيد أنّها لا تقتصر على المتكلم بل تشمل المخاطب أيضًا))[٥٣]، وما يعنينا هو غرايس الذي أولى للقصدية ركنًا مهمًا في نظريته (نظرية المعنى) وناقش فلسفة اللغة في إطار فلسفة الفعل وفلسفة العقل، ((ولعل هذا مما حدى بجون سيرل john Searle (1923)... إلى القول بأنّ تأثير فنجنشاتين المتأخر وأوستن وغرايس يعيد صياغة الكثرة الكثيرة من المشكلات في فلسفة اللغة في السياق الأكبر لمناقشة الفعل والسلوك الإنساني بصفة عامة...))[٥٤]، ولو تأملنا في معمارية هذا الحوار لنجد أنّ دينامية النص أو المحرك الأساس فيه هي العلامة البراغماتية ﴿**وَلَدًا**﴾، فمجيئه نكرة إنّما كان لتحريك النص والاشارة إلى أنّ امرأة فرعون(أ) قصدت عدم الصلة بينها وبين موسى(عليه السلام) بدليل استعمالها الفعل ﴿**نَتَّخِذَهُ**﴾، بمعنى: نصيّره ولدًا لنا، فالاتخاذ يعني أنّه ليس من صلبهم، فضلًا عن أنّ هذا الفعل المستقبلي نفسه يمثل الفضاء الزماني الذي تتحرك فيه هذه الدينامية، بمعنى: سيكون الاتخاذ إلى ما شاء الله، وهذا من مصاديق المعنى الأول الذي وضعه غرايس في هذا الاستلزام [٥٥]، ففضلًا عن أنّهما لا يعرفان (س) فإنّ المعنى المستوفي شروط تحديد (س) دلّ أيضًا على أنّه ولد مجهول، وبالتالي يمكن القول: إنّ استعمال هذه الدينامية كان له أثر وظيفي في إمالة قلب فرعون وعطفه على زوجه، فسبحان الله ((اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه، لقد حمته بالمحبة. ذلك الستار الرقيق الشفيف. لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة، وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره))[٥٦]، ومن هنا تبين لنا أنّ أهم وظائف الحوار التواصلي إحداث تغير في الموقف الفكري والعاطفي للمتلقي[٥٧]، ((فالمرأة قبل كل شيء أمّ بالفعل أمّ بالقوة، وعاطفة الأمومة جزء من طبيعتها، وهذه العاطفة من جهة أخرى ليست معنية بطفلها على سبيل الحصر بل هي معنية أيضًا بالعالم كله))[٥٨].

الخاتمة:

توصل البحث إلى ما يأتي:

١. رمى غرايس إلى دراسة التفاعل التخاطبيّ في الاستلزام الحواريّ المعمّم ضمن مقومات استهدفت الجمع بين متنوعة من المستلزمات اللغوية وخارج لغوية التي يتقاسمها كل من المتكلم والمخاطب، وكذا القدرات العقلية والاستدلالية التي يتوفران عليها.

٢. إنّ الاستلزام الحواريّ المعمّم المتولّد من دلالات التنكير الثلاثة لـ (س) التي نصّ عليها غرايس قائم على ابلاغ المتكلم المخاطب معنى ضمنيًا ينطوي على غرض براجماتي مقصود.

٣. إنّ الغرض النفعي البراجماتي في الحوار القرآني في هذا الاستلزام يتعين بحسب الاستراتيجية التي جاء عليها النص الحواري على وفق مطابقته للمعاني الثلاثة التي نصها غرايس، أمّا (المعنى الأول) فوجدنا فيه نوايا مضمرة؛ إمّا تعجبًا كحوار الهدهد مع نبي الله سليمان (عليه السلام) متعجبًا من تسنم المرأة كرسي الملك في مملكة سبأ، وإمّا استعطافًا كحوار امرأة فرعون مع فرعون عندما ارادت اتخاذ موسى (عليه السلام) قرة عين لهما، وإمّا مساعدة كحوار الله تعالى مع الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ساردًا له قصة موسى (عليه السلام) مع ابنتي شعيب (عليه السلام)، وإمّا إعلامًا كحوار بعض السيارة مع بعضهم الآخر عندما وجدوا يوسف (عليه السلام)، وأمّا (المعنى الثاني) ففيه أيضًا نوايا مضمرة؛ إمّا إيهام كحوار مؤمن آل فرعون مع بنى اسرائيل عندما فكروا في قتل موسى(عليه السلام)، وإمّا إقناعًا وتأثيرًا كحوار أخوة يوسف(عليه السلام) مع بعضهم عندما عمدوا إلى ترك يوسف في منأى عن ديارهم، وأمّا(المعنى الثالث) فقد يأتي للإساءة كحوار بعض كبار قريش مع بعضهم الآخر

متجاهلين معرفة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومتهمينه بالسحر، وقد يأتي للإيهام أيضًا كما في حوار يوسف (عليه السلام) مع أخوته متجاهلاً معرفة أخيه بنيامين، أو للتعظيم كحوار الله تعالى مع رسوله الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ساردًا له تعالى معاناة الرسل من قبله تعزيزًا لهمته وتعظيمًا لمقامه وشأنه.

٤. وجه الاختلاف بين الدراسة اللغوية واللسانية والدراسة التداولية أنّ الأولى تُعنى ببيان أنّ (س) نكرة وغير معروف بالنسبة للمتكلم، والثانية تعتمد في تفسيرها على وفق ما يحدده المخاطب في تفسير (س).

٥.التداولية تدرس اللغة من وجهة نظر وظيفية، فتُفسّر أوجه التراكيب اللغوية

بالإشارة إلى عوامل غير لغوية' وبالتالي تمكننا من تبليغ المعاني أكثر مما تدّل بقول من الأقوال.

الهوامش

* هربولت بول غرايس (Herbert paul Grise): فيلسوف لغوي، ينتمي إلى مدرسة أكسفورد، تأثر بأوستن الذي يُعنى بدراسة فلسفة اللغة العادية، وله إسهامات في علم النفس الأخلاقي وعلم النفس الفلسفي، ومن أهم مصادره:

The meaning , Logic and conversation: the wilam James Lechures , 1967, 1957

(١) ينظر: المنطق والمحادثة (مقالة): بول غرايس، ترجمة: محمد الشيباني، سيف الدين دغنوس، إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦١٨.

(٢) ينظر: التداولية: جورج يول: ٧٢، الاستلزامات الخطابية الوضعية والمحادثية: ترجمة بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، القاموس الموسوعي للتداولية: ٢٦٧.

(٣) ينظر: محاضرات في فلسفة اللغة: عادل فاخوري:٤٠.

(٤) المنطق والمحادثة (مقالة): غرايس، ترجمة: محمد الشيباني، وسيف الدين دغفوس، إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣.

(٥) ينظر: قوانين الخطاب، حكم المحادثة، وفرضيات المحادثة، ترجمة: محمد الشيباني، القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلر . آن ريبول: ٢١٣

(٦) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣ ـ ٦٣٤.

(٧) عمدتُ إلى نقل نص المتكلم بلسانه نفسه، فلم أقل (أ) الله تعالى بلسان سليمان (عليه السلام)، و(ب) الله تعالى مثلًا؛ لأن ذلك يؤدي إلى تكرار المرسِل، فلا يكون للحوار منهجية تطبيقية واضحة، ولا يكون له أثر في نفس المتلقي كأثر الحوار بين طرفين مستقلين؛ ولذا اخترتُ أن يكون منهج عرض الحوار بهذه الآلية في جميع الأطروحة.

(٨) سورة النمل: ٢٠ ـ ٢١.

(٩) سورة النمل: ٢٢ .٢٣.

(١٠) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(١١) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: أحمد المتوكل: ٦٧ . ٦٨.

(١٢) تحليل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي: نعيمة الزهري: ١٢٢.

(١٣) ينظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور ١٩: ٢٥٢.

(١٤) سورة القصص: الآية ٢٣.

(١٥) التحرير والتنوير ٢٠: ١٠٠.

(١٦) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(١٧) السيمياء والتأويل: روبرت شولز: ١٥٣.

(١٨) المصدر والصفحة نفساهما.

(١٩) مدخل إلى دراسة التداولية: فرانثيسكويوس راموس، ترجمة وتقديم: يحيى حمداي: ٧٠ .٧١.

(٢٠) قيل إنّه ذو قرابة من فرعون بقرينة (آل)، وكتم إيمانه ليعمل بالتقية خوفًا على نفسه، ينظر: التحرير والتنوير ٢٤: ١٢٨ . ١٢٩.

(٢١) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٢٢) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(٢٣) يُنظر: السيمياء والتأويل: روبرت شولز: ١٦٨.

(٢٤) ينظر: الكشاف: الزمخشري ١: ٥٢٨.

(٢٥) سورة يوسف: ٨ . ٩.

(٢٦) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب ٤: ١٩٧٣.

(٢٧) المنطق والمحادثة(مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(٢٨) ينظر: تأريخ التداولية (بحث): آفاق تداولية، ترجمة: د. منتصر أمين عبد الرحيم: ٩ . ٢٥.

(٢٩) ينظر: المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش: ١٦.

(٣٠) ينظر: التداولية واللسانيات والعرفان، ترجمة: شكري المبخوت، القاموس الموسوعي للتداولية: ٢٢.

(٣١) ينظر: المقاربة التداولية: ٩.

(٣٢) سورة يوسف: الآية ٥٩.

(٣٣) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٤

(٣٤) روح المعاني: الآلوسي ١٣: ١٠.

(٣٥) ما التداوليات؟ بحث: عبد السلام إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيل علوي: ٢١.

(٣٦) سورة فاطر: الآية ٤.

(٣٧) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٤

(٣٨) التحرير والتنوير ٢٢: ٢٥٦.

(٣٩) ينظر: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي: د. محمد نظيف: ٧ . ٨.

(٤٠) سورة الفرقان: الآية ٨.

(٤١) في ظلال القرآن ٥: ٢٥٥٤.

(٤٢) ما التداوليات؟: بحث: عبد السلام إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة: ١٧

(٤٣) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(٤٤) سورة يوسف: الآية ١٩.

(٤٥) المنطق والمحادثة (مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(٤٦) سورة يوسف: الآية: ٢٠.

(٤٧) سورة يوسف: الآية ٣١.

(٤٨) ينظر: روح المعاني ١٣:٨٨.

(٤٩) التحرير والتنوير ١٢: ٢٤٢.

(٥٠) ينظر: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: محمد محمد يونس علي: ٨٣.

(٥١) سورة القصص: الآية ٩.

(٥٢) ينظر: دينامية النص (تنظير وإنجاز): محمد مفتاح: ٣٩.

(٥٤) دينامية النص: ٣٨.

(٥٤) نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس: صلاح اسماعيل: ٣٠.

(٥٥) المنطق والمحادثة(مقالة): إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية ٢: ٦٣٣

(٥٦) في ظلال القرآن ٥: ٢٦٧٩.

(٥٧) ينظر: اللغة والخطاب: عمر أوكان: ١٣٣.

(٥٨) المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق: بيير داكو: ٤٧.

المصادر والمراجع:

* **القرآن الكريم**

* آفاق تداولية (دراسات وبحوث مختارة) الجزء الأول، ترجمة: د. منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة ـ عمان، ط١، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

* إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين: ترجمة مجموعة من الاساتذة والباحثين، إشراف وتنسيق: عز الدين مجذوب، بيت الحكمة ـ تونس، ٢٠١٢ م.

* التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور(ت ١٩٧٣م)، دار سحنون ـ تونس، (د. ت).

* تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: د. محمد محمد يونس علي، دار كنوز المعرفة ـ الأردن، ط١، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

* التداوليات علم استعمال اللغة: إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث ـ الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١ م.

* التداولية: جورج يول، ترجمة: د. قصي العتابي، دار الأمان ـ الرباط، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

* الحوار وخصائص التفاعل التواصلي (دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية): د. محمد نظيف، أفريقيا الشرق ـ المغرب، ٢٠١٠م.

* دينامية النص (تنظير وإنجاز): د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي ـ المغرب، ط٤، ٢٠١٠ م.

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: السيد محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣ م.

* السيمياء والتأويل: روبرت شولز، ترجمة: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٤م.

* في ظلال القرآن: السيد قطب، دار الشروق ـ القاهرة، ط٣٤، ١٤٢٥ ـ ٢٠٠٤ م

* القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلر . آن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعة التونسية، بإشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا ـ تونس، ط٢، ٢٠١٠ م.

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تصحيح: د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ط١، (د.ت).

* اللغة والخطاب: عمر أوكان، دار رؤية ـ القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

* محاضرات في فلسفة اللغة: د. عادل فاخوري، دار الكتاب الجديد المتحدة ـ بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

* مدخل إلى دراسة التداولية (مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل): فرانثيسكويوس راموس، ترجمة وتقديم: يحيى حمداي، دار نيبور، ديوانية ـ العراق، ط١، ٢٠١٤م

* المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق: بيير داكو، ترجمة: وحيد أسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق، ١٩٨٣م.

* المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، دار الأنفاء القومي، (د.ت).

* نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس: صلاح اسماعيل، الدار المصرية السعودية ـ القاهرة، ٢٠٠٥م.

* الوظائف التداولية في اللغة العربية: أحمد المتوكل، دار الثقافة، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م